منهجنا استيعابيٌّ لا إلغائيّ

خطبة الجمعة في جامع العادلية للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في ٨-٦-٢٠٠٧

الذي يقرأ كتاب الله تبارك وتعالى وقرآنه المجيد، يلاحظ ظاهرةً يمكن للمتأمِّل دراستُها وفهمُها، وهي أن أصول أهل الحقِّ تفرز استيعاب الآخرِ المخالِف، وأن عادة أهل الباطل - في غالب ما ورد في نصوص القرآن توصيفًا - تفرز إلغاءً لا استيعابًا.

استوقفتني هذه الظاهرة وأنا أقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى، ورأيت من النصوص ما يكفي لاعتبارها أصلاً عند منهج أهل الحقّ، وشذوذًا يترافق مع عادة أهل الباطل.

- فعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب أباه الوثنيَّ المشرك:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءِنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

إنه استيعابُ العالِم للجاهل، وبدلاً من أن يوجِّهَ إليه سهامَ العداوة، ويُلغيَ وجودَه لأنه يخالفه ويقف على انحرافٍ عن طريقٍ سديدٍ معرفيّ، قال له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءِنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

وهذا النصُّ يوجِّهنا إلى حقيقةٍ مهمة، فإنه لم يقل له: يا أبت اتَّبعني، لكنه علّل ذلك وبيَّنه حين قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءِنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فعِلَّةُ الاتِّباع منطقيةٌ، لأن الجاهل يحتاج إلى العلم كما تحتاج الأرض العطشى إلى الماء، وبيَّن له نتيجة الاتباع السلوكية والمعرفية، فلم يأت الخطاب: اتَّبعني لنكون قوة بشرية، لكنه قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

وهكذا وقف إمامٌ من أئمة منهج الحقِّ مستوعبًا ومعللاً وشارحًا ومبيِّنًا.

- ونقرأ في نصٍّ آخر قوله تعالى وهو يصف تلك الحادثة الشهيرة التي كان فيها طوفانٌ مُهلِكٌ ومغرِق: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢].

فها هو نوحٌ عليه الصلاة والسلام يجتهد لاستيعاب ولده الكافر، يجتهد من أجل أن يضُمَّه إلى صفِّ مَنْ وقف على الطريق المستقيم، مع أن صاحب الرسالة يملك من المفاصلة المعنوية ما يملكه، لكنه يملك أيضًا الاستيعاب، وبهذا الاستيعاب يظهر مقصوده الواسع الذي لا يرمي إلى الإهلاك بمقدار ما يرمي إلى الإنقاذ.

– ونقرأ أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد خالفك من خالفك من اليهود والنصارى، ووقفوا في الصفِّ الآخر يدبِّرون ما يدبِّرونه من المؤامرات، ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

إنه خطابٌ يدعو المخالِفَ إلى فضائل الإنسانية، حينما لا يتَّخذ الإنسانُ الإنسانَ ربًّا، وحينما يتعامل الإنسانُ مع الإنسانِ على قاعدة المساواة، وحينما يكون للإنسانية سيِّدٌ واحدٌ هو الله...

إنها دعوةٌ يقف فيها إمام أهل الحقِّ يخاطب فيها المخالِف ويقول له: تعال، لا يقول له: أريد أن أحذف وجودك، ولا: أريد أن أُسكِتك وأُخرِسك، بل تعالوا إلى ثوابت الفصيلة.

– ونقرأ قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهنا صرَّح بوصفهم، فهم كفروا بالله وكفروا برسوله، ووقفوا موقفًا معاديًا، لكنه أمر حبيبه أن يقول لهم: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ أي عن البغي والعدوان، ويرجعوا إلى عقولهم، ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] أي تُطوى صفحاتهم السوداء.

وهذا خطابٌ ليس فيه أيُّ مسٍّ أو لمسَةٍ من حقدٍ أو انتقام.

– ونقرأ أيضًا تلك الوصية التي يوصيها ربُّنا تبارك وتعالى لعباده الذين تحقَّقوا بالعبودية له وحده: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] فزوَّدَهم بقاعدةٍ كلية كبيرة وهي: اختاروا في خطابكم ما هو أحسن، وحينما يختار الإنسان ما هو أحسن سيكون مستوعبًا.

وحين خاطب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران قال في مبتدى خطابه: (أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ إِلَهَ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوْب)، وهذا كلامٌ يستعمله النصارى وهو موجودٌ في نُسَخِ إنجيلهم، لكنه لا يتنافى مع عقائدنا، ولا تجد في رسائل النبي صلى الله عليه وسلم استعمالاً لهذه العبارة إلا في خطابه لنصاراهم، وما هذا إلا لأنه يريد الاستيعاب.

وحين أراد أن يكتب صُلحَ الحديبية بينه وبين مشركي مكة قال للكاتب: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم"، فأبى سهيلٌ (المفاوض) وقال: ما ندري ما الرحمن، اكتب كما يكتب العرب "باسمك اللهم"، فقال للكاتب: اكتب "باسمك اللهم"، طالما أنه لا يتنافى مع ثوابت العقيدة الإسلامية.

إنه الاستيعاب.

لكن حينما ننتقل إلى دراسة ما نقله القرآن الكريم لنا عن عادة أهل الباطل، لا نجد ظاهرة الاستيعاب هذه بل نجد نقيضها من الإلغاء، فنجد:

١ – إلغاء حرية تعبير الإنسان، وإلغاء قوله بإسكاته، مع بقائه بينهم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ﴾.

فالقرآن يتحدث عن منهج عام، ويتحدث عن ما قابله من سلوك أهل الباطل: فقوم نوحٍ وعاد وثمود والذين من بعدهم... كيف كان سلوك أهل الباطل في مواجهتهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩].

إنها صورةٌ تمثيليَّةٌ عجيبة للذي يريد إسكات الآخر: حيث يضع يده على فمه.. يكمُّ تعبيره بيده.. يكمُّ الأفواه حتى لا تنطق بالحق.

وهكذا تظهر في هذه الصورة تلك الظاهرة السلوكية الإلغائية عند أهل الباطل.

٢– إلغاء القول بإسكات صاحبه مع الإبعاد، حتى لا يُسمع في حال من الأحوال

وحكى القرآن عن قوم شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وهو النموذج الآخر، الإبعاد.

الشكل الأول إسكات مع إبقائه فيهم، الشكل الثاني الإبعاد، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾، حتى لا يبقى في التجمع البشري صوت صادق ينطق بالحق، وهذه ظاهرة كانت متكررة في القرآن الكريم في نموذجين آخرين، نموذج قوم لوط ونموذج مشركي مكة، بحسب ما نقل القرآن الكريم، ولا يعني هذا أنها لم توجد إلا في هذه النماذج، إنما قُدِّمت إلينا بعض النماذج كأمثلة.

في نموذج قوم لوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] الإبعاد.. ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ولا تتناسب النجاسة مع الطهارة.

وفي نموذج مشركي مكّة، قال الله سبحانه وتعالى مُخاطِبًا حبيبه محمدًا صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ (أي في السجن، الإبعاد إلى السجن.) ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الإخراج، الإبعاد خارج المكان.

أما النموذج الإلغائي الثالث في تصنيفه، والذي يوجد فيما نقله القرآن الكريم إلينا، فهو:

إلغاء وجود القائل إلغاءً تامًا بقتله، وهو الأسلوب الثالث الإلغائي.

الأسلوب الأول: الإسكات.

الأسلوب الثاني: الإبعاد.

الأسلوب الإلغائي الثالث: القتل.

ونقرأ هذا النموذج من نماذج هذا الأسلوب الثالث في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦]

موسى عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الحرية، يطلب من فرعون أن يُحرر قومه، يطلب من فرعون أن يتيقظ من غفلته، وأن يتذكر عبوديته لله، فهو وإن آتاه الله تعالى المُلك عَبْدًا من عباد الله، ناصيته بيد الله، لكن الجواب الفرعوني كان من الأسلوب الثالث الإلغائي.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾

وورد في النص الذي قرأته عليكم، الذي صوّره لنا نموذج مشركي مكّة:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقد استقرأت: أيوجد في منهج أهل الحق شيءٌ اسمه الإبعاد للمخالِف، هل يوجد في أصول منهج أهل الحق شيءٌ اسمه الإبعاد أو الإلغاء؟

لم أجد في القرآن الكريم إلا أن يكون قصاصًا من معتدٍ أو باغٍ، قصاص..

فحينما يعتدي أو يبغي معتدٍ وباغٍ، يُنفَّذ هذا الإبعاد قصاصًا، فلا يوجد على وجه الابتداء أبدًا.

وهذا موجود في نص قرآني، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]

لكنه إن كان مُخالفًا من غير بغيٍ أو عدوان، فلا شأن لنا به.

عندما يكون مُخالفًا وباغيًا معتديًا، يُنفّذ فيه القصاص، يُنفِّذ التجمّع الإسلامي القصاص فيه، ولا يقتلع العدوان أبدًا ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ على التساوي، لأنه إذا كان مُخالِفًا من غير بغيٍ أو عدوان، لا يُجيز القرآن الكريم العدوان أو البغي عليه.

واقرؤوا قوله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]

فهو يُحفِّز أهل الحق على أن يكونوا أصحاب بِرًا وإحسانٍ وعدالة مع المخالف، أن يكونوا أصحاب إكرام، طالما أنه لم يُقاتل في الدين، لم يكن عدو الدين، لم يكن يريد استئصال الدين، و لم يكن من أهل الإبعاد.

وإذا تساءلنا ما سبب وجود الاستبعاد عند أهل الحق، وما سبب وجود ظاهرة الرغبة في الإلغاء عند أهل الباطل؟

الجواب هو: اختلاف المقاصد.

فأهل الحق مقصودهم: إنقاذ الناس، وأهل الباطل مقصودهم: أهواءهم، مصالحهم، رغباتهم، ولو كانت على حساب إهلاك الناس.

هذا هو الفارق: مقصود أهل الحق: إنقاذ الناس.

مقصود أهل الباطل: الأهواء، المصالح، ولو كان فيها إيذاء الناس أو إهلاكهم.

هذا هو السر.

فحين كان صاحب الحق صاحب إنقاذ، أفرز هذا المقصود ظاهرة الاستيعاب عنده، وحين كان صاحب الباطل عَبْد هواه ومصلحته، لم يكن يأبه لهلاك الناس أو وقوعهم في الأذى.

حين وصف الله سبحانه حبيبه وبيّن له مضمون رسالته كما تعلمون قال له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أنت مُنقِذ العالَم.

نقرأ في كتاب الله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] وهذه هي خلاصة مقصود الدين.

نقرأ على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]

نقرأ فواتح سورة إبراهيم: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]

إذًا وظيفتك أن تكون مُنقِذ الناس.

وفي الحكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]

نعم، هذه هي وظيفة الدُعاة، وظيفة الدُعاة الإنقاذ، وظيفة الدُعاة منع وقوع الناس في الأذى المعرفي والأذى السلوكي.

هذا هو المقصود فأفرز الاستيعاب، لكن ما مقصود أهل الباطل؟

الهوى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ومُتبِع الهوى لا ينضبط، ولا يرغب في الانضباط، ولا ينتظم، ولا يرغب بالانتظام.

وقال سبحانه: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم﴾ [الروم: ٢٩]

فلا يظلم ظالمٌ إلا ويكون ظلمه ذاك منبعثًا عن هواه ورغباته المُنحرِفة.

وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين ١-٣]

إنه يتتبع مصلحته المادية، قاطعًا نظره عن العدالة، قاطعًا نظره عن المساواة، قاطعًا نظره عن الحرية، قاطعًا نظره عن مطالب الإنسانية، إنه يريد مصلحته، تحقق الحق فيها أم كان ذلك على حساب إيذاء الآخرين.

وهكذا بعد هذا التفصيل القرآني أقول:

علينا جميعًا، على كل إنسان في العالَم، على كل تجمّع.. أن يختار انتماءه، وأن يُلاحظ سلوكه، فإذا كان سلوكه استيعابيًا فهو من أهل الحق، وإذا كان سلوكه إلغائيًا فهو من أهل الباطل.

على كُلٍ في عالمنا هذا أن يعرف انتماءه، وأن يُحدد مَنْ هو مِنْ أهل الباطل ومَنْ هو مِنْ أهل الخير، فقد صادر أهل الباطل كلمة الخير، كما صادر يومًا من الأيام فرعون، حين قال لقومه واصفًا موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] المُفسِد يتحدّث عن المُصلِح واصفًا إياه بالفساد.

واليوم يُصنِّف مَنْ يُوجّه السياسة العالمية.. يُصنِّف دولاً وتجمعات.. يُصنِّف مجموعات بحسب هواه، هؤلاء من محور الشر.. وأولئك من محور الخير..!!

وهذا مُتكرر في كل تجمّع مبدأه الباطل، ومنهجه البُعد عن الحق.

إذًا علينا أن نُحدد انتماءنا، فإذا وجدنا أننا نملك الاستيعاب، ونملك رجوعًا إلى ثوابت الفضيلة، ومطالب الإنسانية، إذًا نحن من أهل الحق، وإذا كان العكس فنحن من أهل الباطل.

رُدَّنا اللهم إلى دينك رَدًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.